عنوان المحاضرة: الجاحظ والسياقات الثقافية

حياة الجاحظ الفكرية:

كانت حياته الفكرية غنية بالأحداث المعقدة والمتشابكة، حيث عاصر الخلافات وصراعاتها الدامية والعديد من الفتن التي عصفت بالدولة العباسية، كما أنه تأثر بالنزاعات الثقافية والعقائدية التي هيمنت في تلك المرحلة الزاخرة بمعارف متنوعة، وشكلت البصرة مركزا لذلك الإشعاع الحضاري، حيث كانت ملتقى ثقافيا وعرقيا فوفدت إليها معارف الأمم المجاورة، واستقطبت العلماء والمفكرين وطلاب العلم، كما كانت محج الأعراب والشعراء، وشهدت ذلك الصراع الحاد بين أتباع المدرستين: الكوفية والبصرة.[1]

تأثر الجاحظ بعدد من الشخصيات وعلى رأسها النظام مما سمح له بالانضمام إلى مجالس كبار العلماء واكتساب معارف عميقة، حيث سمع عن" أبي عبيدة معمر بن المثنى والأصمعي، وأبي زيد الأنصاري، وأخذ النحو عن الأخفش، وأخذ الكلام عن النظام، وتلقف الفصاحة من العرب شفاها بالمربد"[1]،اتصاله بالنظام أقحمه في مواجهات مباشرة مع القوى الفكرية السائدة، ونزعته العقلية ومقدرته في الموازنة بين منقول الأدلة ومعقولها ساعداه على ذلك.

انتقل الجاحظ من البصرة إلى بغداد عاصمة الخلافة ليتابع مشروعه الفكري الطموح والمتعلق بانخراطه بمؤسسة السلطة التي تمنح ضمانات إبداعية من خلال تبني أعماله، واعتراف المؤسسة الثقافية بها.

الجاحظ والسلطة:

من بين الصراعات الفكرية والعقائدية التي ظهرت في العصر العباسي الخصومة المتعلقة بالإمامة والتي دارت رحاها تحديدا بين الأمين والمأمون فالأول ممثل للروح العربية والثاني ممثل للروح الفارسية وقد اتخذ من آل سهل مساعدين له ومقاتلين معه، إلا أنه سرعان ما انقلب عليهم وعاد إلى الروح العربية الأصيلة.

انجر عن ذلك الصراع في دار الخلافة صراع من نوع آخر، نشب بين ثمامة بن أشرس ممثل المعتزلة ويحي بن أكثم ممثل رجال الحديث حيث سعى كل واحد منهما إلى إقناع المأمون بآرائه، ونجح ثمامة بن أشرس صديق الجاحظ ، وهو ما أدى إلى تبني السلطة لمسألة خلق القرآن وفرضها على الجميع، مما أدخل الناس في صراع عقائدي شمولي،حيث أجبر المأمون العلماء والفقهاء والقضاة على القول بخلق القرآن.[2]

---

[1] ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج5، ت: إحسان عباس، ص 2101.

سمح هذا السياق الفكري المشحون بالتعصب للجاحظ من تأكيد حضوره من خلال ثمامة بن أشرس والعمل على تقريبه من المأمون بعد وضعه كتاب "استحقاق الإمامة" الذي صار وثيقة الدولة الأولى، وقد أشار الجاحظ إلى ذلك في "البيان والتبيين" حيث يقول:" ولما قرأ المأمون كتبي في الإمامة فوجدها على ما أمر به..."[3]

وفي ذلك تأكيد على أن الجاحظ ألفه نزولا عند رغبة الخليفة وهو ما سيسمح له بالحصول على مكانة مرموقة إلى جانب صانعي القرار فيما بعد، حيث أولى كتابه عناية فائقة فقام بإتقانه ليستقيم مع الغاية التي وضع من أجلها، فأصبح دستور الدولة وشريعتها، دعم فيه الجاحظ آراءه بالحجج الدامغة و اللغة الثرية والشواهد المؤيدة حتى يكون بمثابة المدافع عن إيديولوجية السلطة، والمبرز للمقدرة الأدبية لمؤلفِه.

ونجده يصفه في البيان والتبيين قائلا: "وهذا كتاب لا يحتاج إلى حضور صاحبه، ولا يفتقر إلى المحتجين عنه، قد جمع استقصاء المعاني، واستيفاء جميع الحقوق، مع اللفظ الجزل، والمخرج السهل، فهو سوقي ملوكي، وعامي خاصي."[4] يستهدف الجاحظ مختلف فئات القراء، الخاصة والعامة وهو توجه نصادفه في مختلف كتاباته حتى وإن كانت موجهة إلى شخص بعينه.

تتسم الكتابة عند الجاحظ بقدرتها التضليلية، فلا تقدم النصوص والسرديات ضمن أبواب محددة الغايات والأهداف بل تقوم بفعل المراوغة والالتفاف، مما يمنح خطاباته آفاقا متنوعة وتدفع القارئ لإقامة الروابط السردية حيث يقول:" وجه التدبير في الكتاب إذا طال أن يداوي مؤلفه نشاط القارئ له، ويسوقه إلى حظه بالاحتيال له، فمن ذلك أن يخرجه من شيء إلى شيء، ومن باب إلى باب، بعد أن لا يخرجه من ذلك الفن، ومن جمهور ذلك العلم."[5]

إن وعيه الشديد بالسلطة جعله شديد الحذر معها، إذ تستقطب المثقفين والعلماء لتحولهم إلى أدوات تستفيد منها، فهم لا يطلبون لعلمهم وإنما يطلبون لتأدية وظائف وأدوار غالبا ما تعبر عن آراء الخطاب السلطوي.

<u>نقده لكُتّاب عصره:</u>

قرر الجاحظ الخروج من جبة السلطة والتخلي عن امتيازاتها الرفيعة خشية التورط في صراعاتها، وحتى يتسنى له طرح مختلف التساؤلات التي تشغله ومعالجة موضوعات وقضايا بيئته، ومن الموضوعات التي شغلته كتاب عصره، فنقدهم في كتاب له عنوانه: "ذم أخلاق الكتاب" وهو بمثابة خطاب نقدي شامل موجه لمؤسسة الكتابة التقليدية التي تحيط بالسلطة وتعمل لحسابها، وهو لا ينقد الكُتاب بقدر ذمه للسياقات الفكرية التي تحيط بهم إضافة إلى رمزية هذه المؤسسة وقربها من صنع قرار الدولة الشامل.

ويضم الكتاب مادة سردية متنوعة كالقصص والأخبار والشواهد والنوادر ليصدر موقفا سرديا يدعم موقفه، مسلطا الضوء على الظواهر الكبرى التي تبرز في المجتمع، وهو ما نرصده في مختلف كتابات الجاحظ، وهو لا يسعى إلى تقصي الظاهرة ورصد أوصافها فحسب، بل يحاول خلق بناء منهجي يحكم بنية النص. يقول في كتابه "ذم أخلاق الكتاب": "...رسخ في التركيب هواه، ورسبت في القلوب أوتاده، واشتد على المناظر إفهامه، وعلى المخاصم بالحق توقيفه، وكان حكمه في صعوبة فسخه وتعذر دفعه حكم الإجماع إذا لاقى محكم التنزيل."[6]

ويبدو أن مفهوم الإبداع عند الجاحظ يقوم على وعي تام بحدود الكتابة ويعتمد على اتخاذ التدابير الملائمة في الموضوع الذي تتعين كتابته، فعلى المؤلف أن يحكم عمله ليكون متماسكا، كما أن عليه أن يفترض قراء يقفون من نصه موقف المعارض والمناظر، وفئات القراء التي يتحدث عنها الجاحظ هي رمز للأنظمة الثقافية السائدة في جميع العصور، فالمبدع في تصوره هو الذي يأخذ بعين الاعتبار دور القارئ الأساسي في عملية الإبداع، وعليه أيضا أن يهتم بثغرات النص الذي ينوي انجازه، لأن غيابها يدل على جودة النص، تدل هذه الإشارات على العناية التي يوليها الجاحظ للنص وللقارئ، وتكشف عن الحضور المتميز لنصه مقارنة بالكتاب الآخرين الذين سيعمل على ذمهم وكشف مثالبهم.

ملاحظة: للتوسع أكثر يمكن الرجوع إلى تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف وعصر الإسلام لأحمد أمين وغيرها.

---

[2] طه الحاجري، المرجع السابق، ص 188 وما بعدها.
[3] الجاحظ، البيان والتبيين، م2، ج3، ص 375. البيانات.
[4] البيان والتبيين، م2، ج3،ص375.
[5] المرجع نفسه، ص366.
[6] كتاب ذم الأخلاق، ضمن رسائل الجاحظ، ج2، ص187.